العدد الثامن والعشرون

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مَجلّةٌ إسْلامِيَّةٌ – ثَقافِيَّةٌ – جامِعَةٌ – مُحْكَمَةٌ

تَصْدُرُ سَنَوِيًّا عَنْ كلية الدعوة الإسلامية

العدد
28
1435هـ - 2014م

1435 هجري الموافق 2014 ميلادي

- مَسْلَكُ المالِكِيَّةِ فِي الاحْتِجاجِ بالأحادِيثِ المتعارِضَةِ
- هَلْ يَجُوزُ إخْراجُ زَكاةِ الفِطْرِ نَقْدًا؟
- اللُّغَةُ وصِياغَةُ الدُّسْتُورِ (دراسة في لِسانِيّاتِ النَّصِّ الدستوري)
- أخْطاءُ الحِرَفِيِّينَ في شَرْحِ مُلْحَةِ العَرَبِ
- حِمايَةُ أمْوالِ الوَقْفِ في القانُونِ الليبيِّ
- العَلّامَةُ المُفْتِي عَبْدُ الرَّحْمنِ القَلْهُودُ

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

BULLETIN OF THE FACULTY OF The Islamic Call

Twenty eighth year

الدور التجاري لمدينة طرابلس الغرب في العصر الحفصي

(625-916هـ/ 1227-1510م)

د. أحمد مسعود عبدالله *

مقدمة:

قامت طرابلس منذ القدم بدور تجاري له أهميته حيث جعلها موقعها الاستراتيجي على الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط تؤدي دور الوسيط التجاري بين الممالك السودانية داخل القارة الإفريقية، وبين أوربا والعالم الخارجي، وذلك عن طريق المنافذ والموانى البحرية بالبحر الأبيض المتوسط والواحات المنتشرة في صحراء ليبيا، معتمدة على إقرار الأمن وبسطه في خطوط التجارة الداخلية والخارجية التي كانت تشكل البعد الاقتصادي لبلاد طرابلس بصورة خاصة، ونتيجة للروابط التجارية التي كانت تربط بين الشمال والجنوب، فقد زاولت قبيلة (هوارة) التجارة، فتبادلت البضائع والسّلع مع التجار الأوربيين، وبلدان المغرب، والسودان، ومصر.

(*) جامعة الجبل الغربي - ليبيا.

كان النشاط التجاري في طرابلس قد ازدهر بفضل أعداد كبيرة من التجار العرب واليهود في تصدير السلع واستيراد سلع أخرى تحتاجها البلاد، وكان الرحالة والتجار المتجولون الذين يعبرون طرابلس يتبادلون ويبيعون ما معهم من سلع.

وبطبيعة الحال فإن ميناء طرابلس البحري قد لعب دوراً مهماً في تصدير السلع والمنتوجات الطرابلسية إلى المدن الإيطالية مثل جنوة والبندقية ونابولي وبيزة وغيرها والتي كان لها نشاط تجاري بحري كبير.

أما التجارة المحلية فقد تمثلت في وجود عدد كبير من الأسواق التي تعقد خلال أيام الأسبوع حيث يجتمع فيها الباعة بسلعهم الصناعية والزراعية ويرتاد الناس تلك الأسواق لشراء حاجياتهم، وكانت هذه الأسواق معروفة عند الأهالي من خلال تسمياتها على أيام الأسبوع من سوق السبت وسوق الأحد وسوق الثلاثاء وسوق الخميس حيث كانت تعرف هذه الأسواق وأماكنها خلال تلك الأيام المشار إليها.

وهذا البحث يتناول التجارة الطرابلسية ودورها بصفتها الوسيط التجاري بين الممالك السودانية داخل القارة الإفريقية ودول أوربة والعالم الخارجي عن طريق الموانى والمنافذ البحرية للبحر الأبيض المتوسط والواحات المنتشرة في صحراء ليبيا.

1 - التجارة الصحراوية:

كان النشاط التجاري بين طرابلس ومدن جنوب الصحراء متواصلاً بحسب المصادر التاريخية بشكل لا يكاد ينقطع على امتداد التاريخ وذلك لحاجة الشمال إلى الجنوب وحاجة الجنوب إلى الشمال، فكانت القوافل تخرج محملة من طرابلس بكثير من السلع كالملح والزيت والتمور الجافة وبعض الصناعات

اليدوية، وترجع محملة بالذهب وريش النعام وناب الفيل وبعض المنتوجات والسلع الأخرى[1].

وقد ساهم في ازدهار هذا النشاط التجاري تكوين فرقٍ لحراسة القوافل التجارية وحمايتها من قطاع الطرق حيث يصحب القافلة عددٌ من الحراس لحمايتها[2].

كان دور طرابلس في هذه التجارة بمثابة الوسيط حيث كانت معظم السلع القادمة من جنوب الصحراء تصدر إلى أوربا وأدّت المدن التجارية الإيطالية دوراً مهماً في عمليات النقل والتسويق وبذلك كانت التجارة نشطة ومستمرة بين الشمال والجنوب[3].

أما عن تبادل طرابلس وتجارتها مع المناطق المجاورة في بلاد المغرب ومصر فقد كانت هناك طرق معروفة لتلك التجارة، وكانت دائمة الحركة حيث كانت الحيوانات والجلود تصدر من برقة إلى مصر وكذلك الحال مع تونس والجزائر والمغرب حيث كانت منتوجات هذه الدول تباع في أسواق طرابلس خلال الأيام التي تعقد فيها الأسواق أو تعرض في متاجر الطرابلسيين[4] .

وتعددت المسالك في الصحراء واشتهرت منها ثلاثة طرق رئيسية اعتادتها القوافل التجارية وهي:

1 - المسالك الغربية التي ربطت طرابلس بمنطقة المغرب الأقصى جنوباً.

(1) حسن، محمد، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ج1، ص272-273.
السباني، صالح: ليبيا أثناء العهد الموحدي والدولة الحفصية، ص415-416.
Lewicki, T. *A propos d'une Liste de tribus Berberes*, in F., 1959, p.131.

(2) برنشفيك، روبرت Robert Brenschvig، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، ج2، ص244.
De La Ronciere, p.135-147, 152.

(3) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص9-10.

(4) الإدريسي، مصدر سابق، ج1، ص135.

2 - المسالك الوسطى من الصحراء الكبرى التي ربطت طرابلس بمنطقة المغرب الأوسط جنوباً.

3 - المسالك الشرقية وهي التي ربطت منطقة ليبيا كلها بصورة عامة وطرابلس بصورة خاصة بالسودان الأوسط.

وخلاصة القول، إن هذه المسالك الثلاثة التي تم ذكرها هي التي عملت على أن تكون ليبيا عامة وفي مقدمتها طرابلس طريقاً حيوياً للتجارة بين شمال القارة الأفريقية وجنوبها، وميزت طرقها على الطرق الأخرى الواقعة بين موانى بلاد المغرب وإفريقيا[1].

ونتيجة لازدهار التجارة الصحراوية في مدن وقرى ليبيا فقد سار الرحالة عبر طرقها الرئيسة، وقدروا مسافاتها بالمراحل والأيام، ومن هذه الطرق التي وصفوها:

- طريق جبل نفوسة إلى زويلة الذي يبدأ من جادو إلى زويلة، ويتميز هذا الطريق بقصر مسافته حيث إن المسافة بين كل قرية وأخرى من القرى التي يمر بها لا تزيد على مسيرة أربعة أيام[2] ويتخلل هذا الطريق العديد من الواحات تزود المسافر بالماء والغذاء، وتتفرع من زويلة طرق عدة؛ فيتفرع منها طريق إلى اجدابيا وآخر إلى تاجرفت، تقطعه القوافل في أربعة عشر يوماً وكذلك من زويلة إلى سبها، وودان توجد العديد من الطرق تتخللها الواحات[3].

- والطريق العامر الذي تسلكه قوافل السودان الأوسط منذ القدم يبدأ من جنوب طرابلس قاطعاً لرمال الجفارة وسفوح جبال ترهونة إلى بني وليد ثم الجفرة عن طريق (أبي نجيم، فودان، وهون، وسوكنه)، ثم يقطع جبال

(1) ابن سعيد، المغربي، **كتاب الجغرافية**، ص146. السباني، صالح: مرجع سابق، ص417.

(2) أي حوالى 120 كم على اعتبار أن المرحلة 30 كم تقريباً وهي مسيرة يوم واحد.

(3) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص10-12.

السوداء، ويصل إلى واحات الزيغن وسمنو وتمنهنت ثم إلى سبها[1].

❖ أما الطريق التجاري الثالث، فهو طريق غات الذي يربط طرابلس بغدامس، وهو الذي لعب دوراً مهماً في تغذية العلاقات التجارية بين السودان الغربي وطرابلس وخاصة بعد نشاط الطرق البحرية الأطلسية والمتوسطية مع بداية الدولة الموحدية، وأصبحت مرزق بعد سقوط زويلة هي عاصمة فزان فنشطت التجارة عبر هذا الطريق من طرابلس إلى غدامس إلى غات إلى مرزق إلى كاوار، وبفضل هذا الطريق أصبحت فزان محطة ومستودعاً وسوقاً لمنتجات الصحراء والشمال كما ساهمت غدامس بدور فعال في إنعاش هذا الطريق وذلك لموقعها المهم وتجارها النشطين الذين كانوا منتشرين في المراكز التجارية في طرابلس وتونس ومرزق وغات وبلدان ومدن السودان، وبفضل الأهمية التي أعطاها الحفصيون لهذه المدن التي اتخذوها نقطة رئيسية لتصدير بضائعهم وتوريدها من وإلى بلاد السودان[2] وارتبطت مدن مرزق وزويله وغات بأدوار مهمة في تجارة القوافل عبر هذا الطريق الذي استخدمه الرحالة والتجار نقاطا للانطلاق نحو الجنوب.

ويمتاز طريق التجارة بين غدامس وغات بانتشار الآبار حوله، فكانت تزود القوافل بالماء كما أنَه يتفرع إلى ثلاثة طرق أخرى، وهي: الطريق الوسطي، والطريق الغربي، والطريق الشرقي. وتمتدّ هذه الطرق الثلاثة إلى أن تصل أدري[3] ويوجد طريق آخر من غدامس إلى (عين صالح) بالجزائر وجميع هذه المنافذ لها أهميتها في نقل السلع من وإلى هذه البلدان والأماكن الأخرى[4].

(1) المصدر نفسه، ص11-12؛ السباني، صالح، مرجع سابق، ص420؛ بونو، سلفاتور، **تجارة طرابلس عبر الصحراء**، ص83؛ مفتاح، صالح مصطفى، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر**، ص221.

(2) الوازن، حسن، **وصف إفريقيا**، ج2، ص154.

(3) أدري بلد من بلاد فزان في وادي الشاطي إلى الشرق من براك، الزاوي، **معجم البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص21.

(4) الوزان، حسن، مصدر سابق، ج2، ص142-154؛ السباني، صالح: مرجع سابق، ص421-422. DE. G. Motylinski: *Le dialecte Berbere De Redames*, p.257.

كما أسهم في انتعاش الحركة التجارية في طرابل طريق آخر يبدأ من طرابلس وزويلة ومرزق إلى (تجرهي)[1] إلى (بيلما) مركز كوار ثم إلى ضفاف بحيرة تشاد ويعتبر هذا الطريق من أطول الطرق التجارية وأهمها منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي[2] ويعتبر كذلك من أهم طرق تجارة الرقيق في ذلك الوقت.

وكانت الطرق الصحراوية الرابطة بين المدن الليبية ومدن بلاد ما وراء الصحراء تتغير من حين إلى آخر طلباً للأمان وسلامة القوافل وبخاصة في حالات الاضطرابات السياسية أو الاقتصادية. وكان للقوافل نظام معين في تكوينها، فتتكون من عدد الأشخاص ذوي الخبرة والكفاءة المشهود لهم بتنظيم القوافل وإرشادها عبر الصحراء في اتجاه السودان، كما كان هناك اتفاق يتم بكل قافلة يحدد المسؤولية على سلامة وإبعاد الخطر عنها طوال الرحلة التي تستغرق وقتاً طويلاً؛ لأنَّ القافلة عندما تصل إلى المراكز التجارية بالسودان يتم استبدال بضائعها القادمة من طرابلس ببضائع البلاد السودانية المتنوعة عن طريق المقايضة؛ ولذلك فإن العملية التجارية للقافلة تستغرق منها فترة انتظار طويلة حتى يتم جمع الكميات المطلوبة من البضائع السودانية لإكمال العملية التجارية[3].

ومن الطرق التجارية التي لها دورها في ازدهار حركة التجارة بين الشرق والغرب الإسلاميَيْن الطريق الذي يسلكه ركب الحجاج المغاربة، الذي يخرج من المغرب إلى مدينة صفاقص، ومنها يتجه شرقاً عبر ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى أن يصل مدينة طرابلس ثم يمر بمدن الساحل مثل تاجوراء ولبدة وزليتن ومصراتة وسرت وغيرها مستمراً في مسيره حتى يصل الإسكندرية.

(1) تجرهي، **واحة في جنوب فزان**؛ الزاوي، **معجم البلدان الليبية**، مرجع سابق، ص80.
(2) ناجي، محمد، **تاريخ طرابلس الغرب**، ص65.
(3) بونو، سلفاتور، **تجارة طرابلس عبر الصحراء**، ص84؛ السباني، صالح، مرجع سابق، ص423.

ولا شك بأنّ نظام التجارة الصحراوية قد ألزم القائمين عليها بتعيين أدلاء لهم خبرة بمسالك الصحراء وطرقها، فضلاً عن طول المدة التي كانت تستغرقها الرحلة الواحدة ذهاباً وعودة، وما تستغرقه من وقت في تصريف بيع ما تحمله من بضائع، فضلاً عن تحميل القافلة بمنتوجات بلاد السودان.

لقد لاحظ بعض الباحثين أن ركب الحجاج السنوي له دورٌ في تحريك التجارة وعمليات البيع والشراء وبخاصة الحجاج القادمين من تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى مروراً بطرابلس إذ إن معظمهم يحضر معه بعض السلع لبيعها والاستعانة بثمنها لأداء فريضة الحج فكانت مدن الساحل مثل طرابلس وتاجوراء ولبدة وزليتن ومصراتة مناطق عامرة حتى يصل امتداد الطريق إلى الإسكندرية.

وبالإضافة إلى طريق ركب الحجاج الساحلي، يوجد طريق آخر هو طريق غات مصر يقطعه الحجاج المغاربة لأداء فريضة الحج عن طريق الواحات الليبية المصرية وهي آخر الطرق التجارية المهمة حتى يتم وصولهم إلى مدينة القاهرة، ومنها يتجه ركب الحجاج نحو مكة[1].

ومما سبق نتبين أن التجارة البرية أو تجارة القوافل تستوجب الخروج بسلع ضرورية إلى الأماكن والبلدان المتاجر معها مثل السودان وغيرها فتجار مدن إقليم طرابلس يحملون إلى بلدان السودان مثلاً بضائع من إنتاج محلي (ملح، حبوب، تمور، زيت، ثياب،أقمشة،جلود) وغيرها، ويستجلبون سلعاً للاستهلاك المحلي غير موجودة بطرابلس مثل العبيد، والذهب وغيرها، وإن كنا لا نذكر أهمية تجارة العبور التي اعتادتها مدن إقليم طرابلس، حيث تخرج عبرها

(1) العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر (ت 190هـ/ 1679م)، **رحلة العياشي أو ماء الموائد**، ج1، ص59، 103-104؛ مفتاح، صالح مصطفي، مرجع سابق، ص234-235؛ عمورة، علي الميلودي، **القلاع والحصون والمحارس على التراب الليبي خلال مختلف العهود**، ص210-212؛ عبد الفتاح، سالم إبراهيم، **العلاقات بين مصر وطرابلس الغرب في عهد الأسرة القرمانلية**، ص35-36، 212.

سلع الصحراء إلى المشرق والمغرب وشمال البحر الأبيض المتوسط خاصة الذهب والعبيد وسلع هذه الأخيرة تتمثل في الأقمشة الحريرية وقباطي مصر وثياب الخز والكتان والثياب المرسلة إلى بلاد الصحراء وعلى العموم فإن تجارة إقليم طرابلس كانت أكبر في الحقيقة من مجرد تجارة عبور (ترانزيت) حيث تخرج عبرها سلع طرابلس والصحراء إلى بلاد المشرق والمغرب وشمال البحر الأبيض المتوسط.

2 - التجارة البحرية:

تعددت الموانى البحرية في منطقة طرابلس ومنها ميناء طرابلس البحري وميناء زوارة وميناء مصراتة وزليتن وميناء قصر أحمد وغيرها، وقد لعبت هذه الموانى دوراً مهماً في التواصل التجاري عبر البحر المتوسط إلى بلدان أوربا[1] وكانت المدن التجارية الإيطالية الوسيط في هذه التجارة التي تأثرت بفعل الهجرة الهلالية ثم سيطرة قراقوش وابن غانيه على المنطقة، وبالرغم من ذلك فإن حركة التجارة ظلت مستقرة ومتواصلة بين موانى طرابلس وجنوب أوروبا حيث أدّت مدن جنوة وبيزه والبندقية ونابولي دوراً مهماً في هذه التجارة[2].

ولقد عرفت بلدان الشمال الأفريقي خلال العصور الوسطى ازدهاراً كبيراً؛ وذلك لتوفر الشروط الملائمة للتجارة عبر البحر الأبيض المتوسط، وحلت جنوة المكان الأول منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي لتكوّن شركات تجارية بها، وقامت بتوقيع العديد من المعاهدات والاتفاقيات مع طرابلس خلال الفترة من سنة (551-560هـ/ 1156-1164م) كما لحقت بجنوة كل من بيزة والبندقية في فرض وجودها في السوق المتوسطية في بداية القرن الثالث عشر الميلادي بين أيدي أهالي جنوة وبيزة والبندقية وأهل الجنوب التونسي، وعقدت طرابلس كذلك اتفاقيات مع المدن الإيطالية؛ لحماية الأشخاص، وحرية التبادل التجاري

(1) الوزان، حسن، مصدر سابق، ج2، ص98.
(2) المصدر نفسه، ج2، ص98؛ وكرنبال، **مارمول: إفريقية**، ج3، ص121.

وحماية الممتلكات[1] واحتكرت هذه المدن التجارية البحرية، نقل وبيع وشراء البضائع المتنوعة، وازدادت هذه العلاقات بخضوع طرابلس للسيادة الحفصية، وما قامت به هذه الدولة من أمن واستقرار في حوض البحر الأبيض المتوسط، وبما أعطته من امتيازات للتجار الأجانب الذين سارعوا وعلى رأسهم تجار المدن الإيطالية بتوقيع المعاهدات والاتفاقيات معهم وصارت بيزة وجنوة تتنافسان فيما بينهما على التعامل التجاري مع الدولة الحفصية واستغلال الفرص المتاحة للاستثمارات الإيطالية في التجارة الحفصية، فازدادت مراكز تعاملها مع موانى طرابلس[2].

واستطاعت جمهورية البندقية أن تبرم بوساطة مبعوثها (برنابي جيراري) والمترجم البيزي (مانسو) في سنة (757هـ/ 1356م) معاهدة مع طرابلس والتي كانت تحت سلطة ابن مكي تحصلت بمقتضاها على حق استغلال ملاحة رأس المخبز الشهيرة مقابل دفع أجور وإتاوات لطرابلس، كما ضبطت مختلف البضائع الداخلة والخارجة من وإلى الموانى الطرابلسية[3].

وخلاصة القول، فإن طرابلس خلال العصر الحفصي كانت تزدهر وتنمو عندما تكون الأوضاع السياسية مستقرة تنجح في خلق الظروف الملائمة واستطاعت بفضل عبقرية أهلها وجهد مواطنيها أن تعيش فترات سعة ورخاء اقتصادي ولعل ثراء مدينة طرابلس قبل الاحتلال الإسباني لها كان أحد دوافع هذا الاحتلال[4].

وهكذا نجد أن العلاقات التجارية البحرية وأنشطتها تتأثر بالأوضاع

(1) ليتنر، جان كلود، **طرابلس ملتقي أوربا وبلدان وسط إفريقيا (1500-1795م)**، ص24-25.

(2) موسي، عز الدين أحمد، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، ص291.

(3) برنشفيك، روبرت، مرجع سابق، ج1، ص204-205.

(4) ليتز، جان كلود، مرجع سابق، ص10.

الداخلية والخارجية لطرابلس، وأن قيمتها الاقتصادية لا تقل أهمية عن مراكز وطرق التجارة البحرية والصحراوية، فعن طريق المنافذ البحرية تستفيد البلاد من المكوس (الجمارك) والإتاوات المتحصلة من البضائع المصدرة والمستوردة، فكان بيع المواد الواردة عن طريق البحر يتم في أغلب الأحيان داخل ديوان البحر بالتراضي، وتحت المراقبة المباشرة لوكلاء الدولة، أو بالمزاد العلني، ويمكن أن يتم بحرية خارج الديوان، وفي الحالتين كلتيهما يتم التحصيل المقرر عن البضائع[1] ويسلم الديوان إيصالاً للمعني بالأمر يقوم مقام تأشيرة الخروج الحالية.

كانت الإتاوات المقررة عن البضائع التي يستوردها الأجانب من طرابلس لا تزيد نسبتها عن 10% في العصر الحفصي، وأما الذهب والفضة والأحجار الكريمة واللؤلؤ فلا يدفع عنها إلا نصف الأداء المقرر، وتتمتع بالإعفاء التام إذا كانت هذه المعادن مخصصة للعملة، أو لخزينة البلاد، كما تتمتع الحبوب أيضاً بالإعفاء الضريبي[2].

أما بالنسبة للمعاملات التجارية الخاصة مع الدول النصرانية، أو البحرية فتتم بوساطة النقود الذهبية والفضية إلى جانب المقايضة في بعض الأحيان.

3 - السلع التجارية:

أدت الطرق التجارية البرية والبحرية في طرابلس دوراً كبيراً في تنشيط حركة التجارة الداخلية والخارجية وسهَّلت عملية الاستيراد، والتصدير للسلع والمنتجات المحلية على أن هذه السلع قسمت على مجموعتين هما:

المجموعة الأولى: وتتمثل في السلع الواردة من السودان وأوربا وبلاد المغرب.

أما المجموعة الثانية: فتتمثل في السلع المصدرة إلى بلدان أوربا وبلدان السودان الغربي.

(1) برنشفيك، روبرت، مرجع سابق، ج2، ص251.
(2) المرجع نفسه، ج2، ص252.

أولاً: السلع الواردة من السودان:

كانت طرابلس تستورد من بلاد السودان العاج والعنبر وريش النعام والرقيق والجلود المدبوغة التي كانت لها قيمة في الداخل، حيث صنعت منها الأحذية وقرب الماء والسيور والأسواط وألجمة الخيل وغيرها، كما اهتمَّ الطرابلسيون بالعاج وصنعوا منه أواني الشرب وزينوا به خيولهم، وجميع هذه السلع التي تم ذكرها كان يصدرها الطرابلسيون إلى أوربا بعد سد حاجة السوق المحلي منها[1] كما استوردت طرابلس الشب الكانمي لجودته، وكثر كميته، وحسن سمعته، وقامت بتصديره إلى الخارج مع الشب السرتي والغدامسي الأبيض الذي لا يوجد له مثيل في العالم[2] وكانت أهم سلعة ذات مردود اقتصادي كبير هي تجارة الرقيق التي كانت «تزاولها بعض المدن» وكانت تدر عليها أرباحاً كثيرة واعتمدت عليها في تجارتها مع مصر وبلدان المغرب وأوربا[3].

وكانت تجارة الذهب من أهمّ السلع الأعمال التي زاولها تجّار طرابلس التي جذبت التجار عبر العصور وأثارت انتباه الرحالة والجغرافيين العرب منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي فجمعوا عنها معلومات كثيرة وحصروا مناطق الذهب في السودان الغربي[4] وإلى جانب هذه التجارة استوردت طرابلس من أوربا (المعادن الثمينة والنقود والمجوهرات وسبائك الذهب والفضة والمرجان والنحاس الأحمر الملون واللؤلؤ، والزجاج من البندقية والخردوات)، إضافة إلى (ثياب الصوف والقماش ومواد النسيج والتوابل والعطور والحرير والسفن والحبوب) وبعد اكتفاء أهل طرابلس من هذه السلع كان يصدر المتبقي مع

(1) قداح، نعيم، **إفريقية الغربية في ظل الإسلام**، ص126؛ السباني، صالح، مرجع سابق، ص429.
(2) مجهول الاستبصار، مصدر سابق، ص224-225.
(3) البكري، **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**، مصدر سابق، ص11- 12.
(4) السباني، صالح، مرجع سابق، ص429.

العمائم والمآذر والأصداف إلى البلاد السودانية، وهذا ما كانت تقوم به قبائل هوارة خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد[1].

ثانياً: السلع المصدرة من طرابلس:

أمَّا السلع المصدَّرة من طرابلس، فكانت متعددة منها ما هو محلي ومنها ما هو من الخارج، وكان على رأس السلع المحلية (الملح) والذي كان متوفراً بكميات كبيرة في مناطق زوارة وطرابلس، وهو من المواد الضرورية في حياة الإنسان، ولذلك كان سلعة تجارية رائجة في الداخل والخارج[2].

إلى جانب تجارة الملح قام تجار طرابلس بتصدير الأحجار الكريمة التي كانت صحراء غدامس مصدراً لها وهذه الأحجار ذات ألوان متعددة منها الأحمر والأصفر والأبيض، وأهل السودان عندهم هذه الأحجار بمثابة الياقوت بل وأجمل وإذا وصلت عندهم هذه الأحجار فإنهم يتغالون في ثمنها[3] كما صدَّرت البلاد الطرابلسية الفخَّار الغدامسي وبعض العطور المحلية إلى أسواق السودان الغربي والأوسط والتي كانت ذات مردود اقتصادي كبير.

وخلاصة القول، فإن طرابلس صدرت إلى مصر وأوربا أغلب منتجاتها المحلية مثل (العسل والأغنام والقطران والكبريت وزيت الزيتون)، وكانت القيروان تجلب زيت الزيتون من مناطق طرابلس، وتعيد تصديره إلى صقلية[4] كان هناك الصوف والزرابي، التي اشتهر منها نوع نسب إلى طرابلس اسمه (كران)، وتحصلت جمهورية البندقية في سنة (758هـ / 1356م) على حق تصدير الزرابي الطرابلسية بدون أداءات جمركية، وهذه السلع وغيرها من السلع الأخرى كانت لها أهمية اقتصادية كبيرة لطرابلس وكانت تنقلها المراكب من

(1) المرجع نفسه، ص429.
(2) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، مصدر سابق، ص8.
(3) مجهول الاستبصار، مصدر سابق، ص224 - 225.
(4) مجهول، **كتاب الاستبصار**، ص146؛ السباني، صالح، مرجع سابق، ص431.

المواني الطرابلسية إلى الخارج لتعود محملة بما يحتاجه ويتاجر فيه الطرابلسيون[1].

4 - الأسواق التجارية:

السُوق بضم السين هو الموضع الذي يبتاعون فيه والجمع أسواق كما جاء في التنزيل ﴿إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[2] وتسوّق القوم إذا باعوا واشتروا[3].

إن الحركة التجارية داخل مناطق طرابلس وخارجها، تتمثل في تسويق البضائع المحلية والخارجية القادمة إليها من مناطق أخرى، وكانت هذه الأسواق لا تختلف في أغلب الحواضر الحفصية المنتشرة في طول البلاد وعرضها، وتعقد يومياً أو أسبوعياً أو موسمياً، فالأسواق اليومية هي أسواق المدن، وهي ثابتة دائماً ولها أماكن خاصة بها، وبالإضافة إلى تعاملها التجاري، كان أغلبها مخصصاً للخزن والبيع مثل الأسواق التي تباع فيها المواد الغذائية والأسواق المخصصة لخزن وبيع الأقمشة والمنسوجات المستوردة، وإلى جانبها توجد بعض المواد الأخرى، مثل (الفحم والزيت والملح)، والتي كانت تباع في داخل الأحياء أو خارجها، وكان أهل الريف يأتون كل يوم من حقولهم لبيع منتجاتهم وحيواناتهم، وذكرت بعض المصادر أن أسواق مدينة طرابلس كانت منسَّقة ومفصولا بعضها عن بعض حسب اختلاف الحرفة والسلعة وخاصة حرفة النساجين، وأن تجار طرابلس مثلهم مثل أهل طرابلس على درجة عالية من الأخلاق في البيع والشراء، والمعاملة وخاصة مع الغرباء[4].

نستطيع أن نتبين أدوار الحياة التجارية، وأسواق طرابلس خلال الفترة

(1) برنشفيك، روبرت، مرجع سابق، ج2، ص276.
(2) سورة الفرقان، من الآية: 20.
(3) ابن منظور: **لسان العرب المحيط**، مادة سوق، ج6، ص485.
(4) الوزان، حسن، مصدر سابق، ج2، ص97؛ الحميري، **الروض المعطار**، مادة طرابلس، ص389؛ السباني، صالح، مرجع سابق، ص432.

العربية الإسلامية خلال العصر الوسيط من خلال ما كتبه الرحالة والجغرافيون العرب عنها، فإن ابن حوقل وصفها في كتابه صورة الأرض في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بقوله: إنها «خصبة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق، وكان لها في ربضها أسواق كبيرة فنقل السلطان بعضها إلى داخل السور»[1] أما البكري صاحب كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب فيصفها في النصف الثاني من القرن (الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد) نقلاً عن غيره بقوله: «وبها أسواق حافلة جامعة»[2] وهو وصف مختصر يستشف منه أن أسواقها تشهد رواجاً كبيراً وأنها حافلة بكل أصناف البضائع.

أما الإدريسي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد فوصفها بقوله: بأنها «متقنة الأسواق، وبها صناع وأمتعة يتجهز بها إلى الكثير من الجهات»[3] أنها ذات أسواق رائجة وصناعات وفيرة يتجهز بها إلى الخارج وإنها كانت تشهد رخاءً وازدهاراً رغم أنها في الفترة السابقة كانت في وضع أحسن.

أما صاحب كتاب (الاستبصار في عجائب الأمصار) فوصف أسواق مدينة طرابلس في القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد بقوله: «وبها سوق حافلة... وأكثر أهلها تجار يسافرون براً وبحراً وبهم سمح في تجارتهم وهم أحسن الناس معاملة»[4].

أما الرحالة التجاني الذي زار طرابلس خلال العصر الحفصي فإنه ذكر أحد أسواق طرابلس الكبرى وهو موقف الغنم الذي يعتبر من أسواق طرابلس القديمة، وقد ذكره التجاني في رحلته سنة (706-708هـ/ 1306-1308م) حيث قال: «باب يعرف بباب هوارة...، وبين يديه من داخل المدينة بطحاء متسعة

(1) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص71-72.
(2) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص7.
(3) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، ج1، ص134-135.
(4) مجهول، **الاستبصار**، مصدر سابق، ص110.

يعرفونها بموقف الغنم يبيعون بها أغنامهم ومواشيهم»[1].

وإلى جانب الأسواق اليومية توجد أسواق أسبوعية في مختلف مدن، وبوادي وأرياف طرابلس، ولا توجد إشارات كثيرة بذلك، فالتجاني في رحلته إلى طرابلس خلال العصر الحفصي ذكر أن مدينة زنزور ينصب بها سوق كبير كل يوم جمعة يتجمع فيه السكان من كل مكان وذلك لتبادل منتجاتهم وبيع وشراء ما يحتاجون إليه من بضائع ومواشٍ كانوا ينتجونها في مدنهم وقراهم[2] ومن الطبيعي أن تقام الأسواق في المدن البعيدة عن طرابلس، والأرياف أسبوعياً وذلك لاشتغال الناس بأعمالهم الفلاحية أو الحرفية طوال الأسبوع، ولقلة تفرغ كل الناس للبيع والشراء اليومي، والذي كان في الغالب يقوم به أصحاب الحوانيت والموزعون في أغلب القرى والأرياف، وذلك لسد حاجة الناس اليومية.

أما الأسواق الموسمية فإنها ليست منتشرة على نطاق واسع في طرابلس إلا ما ذكره التجاني من أن زاوية (أولاد سنان) كانت تنظم سوقاً كبيراً للبيع والشراء نهاية كل سنة[3] وهو ما يشبه المعارض السنوية عندنا اليوم.

وإلى جانب هذه الأسواق هناك تجار جوالون كانت لهم القدرة على التجارة بين البادية والمدن الحضرية والقدرة على المخاطرة للسفر إلى المناطق البعيدة، والتغيب لفترات طويلة عن مساكنهم وذويهم؛ وذلك نتيجة للأرباح التي يتحصلون عليها من تلك التجارة[4].

وكان بتلك الأسواق بعض أنواع البيوع المعروفة ببيع المزايدة، وخاصة في أسواق المدن والذي يسمى (الدلال)، فكان يجوب السوق عارضاً للسلعة بين

(1) التجاني، **الرحلة**، ص245.
(2) التجاني، مصدر سابق، ص215-216.
(3) المصدر نفسه، ص214.
(4) موسي، عز الدين أحمد، مرجع سابق، ص282.

يديه وخلفه صاحبها أو وكيله ويعلن السعر الذي يعرضه المشترون إلى أن يصل السعر منتهاه فيكرر ذلك أربع مرات قبل أن يدفع السلعة إلى المشتري ويقبض ثمنها[1].

أما من حيث المعروضات في الأسواق الطرابلسية فقد تنوعت بالحاصلات الزراعية والمنتجات الصناعية حسب ما تشتهر به كل منطقة[2].

ففي المنطقة الغربية من ليبيا كانت أسواق سرت يعرض فيها التمور والفواكه والأعناب والشب والأكسية الصوفية، وأسواق لبدة غنية بأصناف الفواكه كالخوخ والكمثرى والتمور، والكحل[3].

وأظهر تدفق التجارة بين طرابلس وغدامس من ناحية ومملكة مالي الإسلامية من ناحية أخرى خلال القرون الوسطى حقيقة لا يمكن الشك فيها هي أن الصحراء الكبرى لم تكن حاجزاً في أي يوم من الأيام بين أبناء القارة الواحدة، وأن التجارة كمثال كانت مزدهرة بين طرابلس وغدامس وبين مدينة تمبكتو في المقام الأول، وأن تجار طرابلس وغدامس كانوا أكثر التجار تردداً على مدينة تمبكتو حيث كانوا يجلبون من بلادهم السلع المختلفة، وتشتمل هذه السلع على المنسوجات المختلفة والأحذية والملح وتتم مقايضتها بالذهب والصمغ والعاج وريش النعام والبخور كما كان تجار التكرور على اتصال دائم بجبل نفوسة يحملون البضائع، وكان تجار طرابلس وغدامس يحملون إلى تمبكتو البضائع المستوردة من أوربا عبر البحر الأبيض المتوسط، ولم تقتصر تجارة طرابلس على مالي فقط بل تعدتها إلى بلدان السودان الغربي، وقد استمرت هذه العلاقات التجارية خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد وخلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد واستمرت كذلك حتى بعد سنة (873 هـ

(1) السباني، صالح، مرجع سابق، ص434.
(2) مجهول، **الاستبصار**، مصدر سابق، ص144.
(3) ابن حوقل، مصدر سابق، ص70-71.

/ 1468م) قوية متينة، بل زادت ازدهاراً وتقدماً؛ وذلك بتشجيع (منسا علي) الغدامسي الأصل التجار الوافدين من طرابلس برفع قيود وإجراءات كانت متبعة في العلاقات التجارية، وفتح أمامهم كل أرض السودان الغربي يجوبونها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً[1].

ويرى الباحث أن التجار الطرابلسين يعتبرون أنفسهم أنهم أخوال (منسا علي) وهو من بني جلدتهم على العكس من غيرهم من التجار الآخرين، لقد كانت التجارة التي ازدهرت بين طرابلس ومالي قد سلكت طرقاً عدة معروفة لدى التجار وكانت من ميزاتها قصر الطريق وسهولة العبور وتوفر الأمن والماء.

ومن المعروف عن التجار في العصور الوسطى أنهم كانوا يمكثون خارج بلدانهم، فالتاجر من طرابلس أو غدامس مثلاً عندما يسافر لغرض التجارة إلى السودان الغربي فإن مشقة الطريق تنهكه، وتنهك راحلته؛ لذلك يتطلب منه الاستراحة في المكان الذي يبيع فيه تجارته فيبني مسكناً وينتظر حتى تعوض راحلته ضعفها وتعبها أو يحصل على بديل لها.

وبما أن الغدامسيين كانوا أكثر التجار وروداً على السودان الغربي (تمبكتو) فالأمر يقتضي منهم الاستقرار مدة طويلة وكان هذا الاستقرار في أغلب الأحيان، يؤدي إلى اتخاذ زوجة إلى جانب زوجته الأولى إن وجدت فتكون للتاجر زوجة في غدامس وأخرى في تمبكتو، وتكونت أحياء للغدامسيين من أرقى الأحياء في (تمبكتو) ويقع في جنوب غربي المدينة حيث يبلغ طوله حوالى نصف كيلو متر تقريباً، وكان على درجة من الحسن والأناقة والتنسيق في الشوارع[2].

(1) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص696؛ الدالي، الهادي المبروك، **مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا من القرن 13-15م**، ص181-185.

De la Roncire, CH.: *La Decouverte De L'Afrique au Moyen Age*, T.j. Le Caire, 1934, p.146-147, 152.

(2) الدالي، الهادي المبروك، مرجع سابق، ص186-187.

ومما يؤكد ذلك أنه عند مجيء الحملة المراكشية إلى منطقة السودان الغربي في أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي اختارت موضع حي الغدامسية لإقامة قصبة الحكم فيه لما يمتاز به من موقع ممتاز وكثرة للبناء واستراتيجية لا تعادلها قيمة والذي جعل حي الغدامسية على درجة من الرقي مرده إلى مكانة وثراء التجار الطرابلسيين بالنسبة للسكان الأصليين لما للتجارة من قيمة كبيرة؛ ولذلك ازدادت ثروتهم وكثر بناؤهم وعرفوا لدى العامة والخاصة بالثراء فلم تقتصر تجارتهم على مدينة تمبكتو فقط بل تجاوزتها إلى مناطق أخرى وقد عرفهم أهل تمبكتو وغيرهم بكثرة حفلاتهم وأعيادهم فكانوا يطعمون الناس في المناسبات المختلفة ويدعون الناس عامة وخاصة[1].

وخير مثال على ذلك أسرة ضياء التي ينحدر منها الملك (منسا علي) وأسرة الحاج (محمد سليمان بن عب) والشواهد على ذلك كثيرة تعبر عن عمق الصلات بين أبناء طرابلس والسودان الغربي بالإضافة إلى أن الذين أسسوا مدينة جاو هم دعاة دين إسلامي من طرابلس الغرب انضم إليهم السكان الأصليون وجعلوهم حكاماً عليهم[2].

ومن هنا ندرك قيمة العلاقات الحميمة القديمة بين طرابلس والسودان الغربي (مالي) التي كان من أكبر وأهم نتائجها انتشار الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية، وكان للغة العربية والخط العربي الأثر الأكبر في اللغات الأفريقية المحلية فاكتسبت منهما العديد من مفرداتها، وخاصة الدينية والحضارية.

5 - نظم الأسواق:

عرفت منطقة طرابلس بنظام أسواقها القائم على التخصص في سلعة واحدة مثل سوق الخبز لبيع الخبز، وسوق التمَارين لبيع التمور وسوق الصباغين لصباغة المنسوجات، وسوق النحاسين لصناعة النحاس والحاجيات المصنوعة

(1) المرجع نفسه، ص187-188.
(2) الدالي، الهادي المبروك، مرجع سابق، ص188-189.

منه، وسوق الأقمشة لبيع الأقمشة، وسوق الصاغة لبيع المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة وغيرهما.

وقد حُدِّدَ لكل سوق من الأسواق العامة سواء اليومية أو الأسبوعية، أو الموسمية أشخاصٌ حريصون على استيفاء المكوس من أصحاب التجارات وحصر البضائع التي تأتي من خارج المدينة واستيفاء المكوس عليها، ويتم تقييد ذلك في سجلات، ومعاملات خاصة، تقدم إلى حاكم المدينة، والذي بدوره كان يراعي الدقة في هذه الأمور للتأكد من أمانة وسلامة التحصيل، وكانت هذه المكوس تشمل كل البضائع الواردة الى المدن والمعروضة في الأسواق، وذكر (ابن حوقل) في هذا الشأن أن حاكم مدينة سرت كان يتولى جمع المكوس المفروضة على القوافل التي تجتاز المدينة[1] وأن هذا الأمر قد استمر خلال العصر الحفصي في جميع البلاد الطرابلسية الخاضعة لحكم الحفصيين.

6 - العملة:

يتعامل الناس في الأسواق الطرابلسية بيعاً وشراء بطريقتين الأولى تعرف بالمقايضة[2]، أما الطريقة الثانية فتتم نقداً بالعملة المعروفة لديهم مثل العملة الطرابلسية والزويلية والأفريقية واللواتية والتي كانت تتكون من الدينار والدرهم، وذكرت المصادر أن البلاد أي طرابلس عرفت بتداولها للنقود الجربية خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، والمعروفة بـ(الحندسية) وهي دراهم مصنوعة من الفضة والذهب، وإن كان التجار يسمونها قراريط ذهب[3].

وعندما دخلت طرابلس تحت السيادة الموحدية انتشرت فيها عملة الموحدين، وقد طور الموحدون العملة الإسلامية، والتي كانت عبارة عن درهم

(1) ابن حوقل، مصدر سابق، ص70-71؛ مفتاح، صالح مصطفى، مرجع سابق، ص215.
(2) موسى، عز الدين أحمد، مرجع سابق، ص302.
(3) نشفيك، روبار، مرجع سابق، ج2، ص253.

فضي مدور، فأصبح مربع الشكل، ووضع دينارهم الذهبي مدورا، ويحمل في وسطه مربعاً بداخله كتابة من أحد الجانبين تشتمل على التهليل والتحميد ومن جانبه الآخر كتابة المهدي بن تومرت واسم الخلفاء من بعده[1]، ولم تكن مسكوكات الموحدين تحمل تاريخ الضرب ولا المكان الذي سُكّت فيه إلا نادراً حيث يرسم في آخر الكتابة بحروف ضئيلة اسم المدينة[2]، إلَّا أنَّ هذه العملة لم تستمر طويلاً فبعد قيام الدولة الحفصية في الربع الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد، خضعت طرابلس للسيادة الحفصية التي اعتمدت عملة خاصة بها مصنوعة من النحاس سموها (الحندوس) لتحل محل العملة الفضية التي كانت متداولة، والتي لحقها الغش من قبل اليهود الذين يقومون بسكها وصرفها، وتم التعامل بها في طرابلس إحدى ولاياتها التابعة لها[3]، وكانت قيمة الدينار والدرهم تتم على حساب وزنها وعيارها وعلى ضوء ذلك يتم التعامل بها في البيع والشراء.

إن الدولة الحفصية في مسكوكاتها نسجت على منوال الدولة الموحدية، ولا يوجد إلا خلاف طفيف في كتابة الأسماء المرسومة في العملة، أما وزن الدرهم الحفصي، فكان يزن غراماً واحداً ونصفاً، وفي الغالب خط الكتابة يكون بالحروف المعروفة بالمدورة، وهو الخط الأندلسي، أو بالخط الكوفي المزخرف وبدرجة خاصة في بداية الدولة الحفصية[4]، ويزن الدينار الحفصي أربعة وعشرين قيراطاً أي ما يعادل (دوكة) وثلثاً ويسك الدينار أيضاً عملة فضية مربعة الشكل

(1) السباني، صالح، مرجع سابق، ص436؛ حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، ق1، ص454.

(2) السباني، صالح، مرجع سابق، ص436.

(3) الشيباني، عمر التومي، **تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا**، ص183؛ مصطفى، كمال، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسى**، ص78.

(4) عامر، أحمد، **الدولة الحفصية**، ص23-25، حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات**، ق1، 455-460؛ السباني، صالح، مرجع سابق، ص435-437.

تزن ستة قراريط ويساوي ثلاثون منها أو اثنان وثلاثون منها ديناراً واحداً[1].

وخلاصة القول، فإن السكة عند الحفصيين مربعة الشكل بعد أن ظلت خلال العهود السابقة ذات شكل مستدير وتتكون من الدينار والدرهم والحندوس وكانت الكتابة عليها بالخط الكوفي المزخرف، أو بالخط الأندلسي وكان الدينار يتجزأ إلى نصف وربع وثمن ومنذ أيام الأمير أبي عمرو عثمان صار الدرهم يعرف بالناصري، وله أجزاء وبجانب السكة الحفصية راجت سكة الإسبان (الدوكة) وهي تعادل الدينار و(الكرونة) وهي تعادل الناصري أيام الحماية الإسبانية[2].

7 - المكاييل والموازين والمقاييس:

المكاييل والموازين والمقاييس تعتبر عنصراً أساسياً من ضمن عناصر تبادل السلع إلى جانب النقود، فبالنسبة للبيع والشراء توجد مواد قابلة للعد مثل الحيوانات والبيض والخضر والفواكه، وفي أغلب الأحيان يتم وزن أو كيل أو قياس البضائع التي يصعب عدها، أو فرزها، لذلك وجدت الموازين والمكاييل، ومن أكثر ما يستعمل في طرابلس من الموازين (الأوقية، والرطل، والقنطار، والربع)، ومن المكاييل: (المد، والصاع، والصحفة، والجرة، والقفة، والقفيز)، وهذه المكاييل هي مقاييس أو مقادير اصطلاحية تختلف من بلد إلى آخر، كما أن بعض الموازين والمكاييل تستعمل في بعض المناطق دون غيرها، وأن وزنها يختلف رغم تشابه التسمية، فالقفيز الطرابلسي مثلاً يختلف عن القفيز التونسي حيث يساوي القفيز الطرابلسي حوالى 252 لتر في حين يساوي القفيز التونسي 187,58 لتر[3] ويساوي القفيز 24 كيلاً والكيل يساوي ثمانية أصْوُعٍ،

(1) الوازن، حسن، مصدر سابق، ج2، ص81.
(2) عامر، أحمد، مرجع سابق، ص23-25.
(3) برنشفيك، روبرت، مرجع سابق، ج2، ص262.

أما الصاع[1] فيحتوي على 12 مداً[2] بمُد الرسول ﷺ، ويسمى أيضاً صحفة، أما السوائل فإن الطرابلسيين كانوا يتعاملون بها بوساطة الجرة والغراف ثم اللتر وأجزائه، (النصف، والربع، والثمن، والعشر)، وكانت الجرة تعادل ست غرافات، ووزن الغراف مقداره 2،030 كيلو جرام والجرة تساوي 12,180 كيلو جرام تقريباً[3].

أما المقاييس المستخدمة في طرابلس فإنها كثيرة منها الذراع الذي يتراوح طوله بين 0,46 متراً إلى 0,48 ثم الفرسخ، والقدم، والميل الذي كان يساوي ستة ألاف ذراع، ويساوي الذراع أربعة وعشرين أصبعاً، وبخصوص تقدير الأراضي الزراعية فكانت تقاس بالخطوة والجداول حيث تتراوح ما بين أربعة أمتار طولاً إلى تسعة أمتار مربعة، وكانوا أيضاً يقيسون بوساطة القامة التي مازال الناس يستعملونها حتى الآن في حياتهم العملية عند غياب المقاييس الحديثة، القامة هي ما يعادل المسافة بين طرفي اليدين الممدودتين وتساوي 1,65، 1,70 متراً أي ما يعادل تقريباً سبعة أشبار حيث يبلغ طول الشبر 0,24 متر ويساوي ثلاثة قبضات أو 12 قدماً، أو ما يعادل نصف ذراع تقريباً وتقاس الأقمشة بمقياس الكانة التي يبلغ طولها حوالى 2,20 متراً[4] ومن المقاييس أيضاً (الحذفة)، ولازال القياس بالحذفة مستخدماً في طرابلس في تقسيم أراضي الوديان الكبيرة والمنبسطة خلال فترة حرث الأراضي بين سكان المناطق في الدواخل، وهذا ليس لعدم وجود المقاييس الحديثة أو جهل الناس بها وإنما

(1) الصاع: وعاء تصنع من سعف النخيل أو الفخار ويساوي أربعة أمداد أي أربع مرات ملء اليدين؛ الهادي عبد العال حنيش: أدوات ومعايير الكيل والقياس في التراث الشعبي الليبي، ص42.

(2) المد: هو ضرب من المكاييل ويقال ملء اليدين تقريباً وهو ربع صاع وهو قدر مد النبي صلى الله عليه وسلم أي حوالى نصف أو ثلاثة أرباع الكيلو جرام وهو من أهم المكاييل في الزكاة والصدقة، الهادي عبد العال حنيش: أدوات ومعايير الكيل والقياس في التراث الشعبي الليبي، ص43.

(3) ناجي، محمد، **تاريخ طرابلس الغرب**، ص67-68.

(4) برنشفيك، روبرت، مرجع سابق، ج2، ص263؛ الهادي عبد العال حنيش، ص44-45.

هي عادة، وعرف، كما أنَّ القياس بالحذفة أكثر يسراً وسهولة ولا يتطلب جهازاً أو أداة معينة، والحذفة تساوي تقريباً عشرين خطوة مزدوجة، وهي تساوي حوالى المتر والنصف وبذلك تكون الحذفة تساوي 30 متراً تقريباً[1].

ولتكون القسمة متساوية أو متقاربة فلابد أن يكون الشخص القائم بالقسمة واحداً أو إذا تطلب ذلك الأمر شخصين فيجب أن تكون خطاهم متقاربة من حيث المسافة[2].

ومن المقاييس في طرابلس اليوم والشهر لقياس المسافة وخاصة البعيدة فيقال مثلاً: إن المسافة بين هذه المنطقة وتلك تساوي مسيرة يومين سيراً أو مسيرة 3 أيام ويساوي اليوم والمرحلة بمسير الإبل أي حوالى 30 كم تقريباً.

وخلاصة القول، فإن استخدام الزمن وخاصة اليوم والشهر في القياس قبل ظهور المقاييس الحديثة كان موجوداً لدى العرب وعلى سبيل المثال استخدمها الرحالة والجغرافيون العرب في العصور المتلاحقة.

ومن المعلوم أن المسافات البعيدة اليوم تقاس بالكيلومترات والأميال وغيرها من المقاييس المعروفة لدى شعوب العالم[3] أما المسافات الطويلة فليس لدينا أي معلومات حول قياسها في البلاد الحفصية، ولكن يبدو أنها كانت معروفة وثابتة في كل الأماكن، والتي تتمثل في الميل الذي يساوي في تونس حديثاً 1،453 متراً ويمثل ألف خطوة تقريباً، وتساوي كل خطوة ثلاثة أذرع تقريباً أي 1،45 متراً حسب ما هو متعارف عليه ولكن الناس دائماً يكتفون في أغلب الأحيان بتقدير المسافات بأقل دقة ولا يتحرون في دقتها، ويعتبرون المسافة بالساعة أو بالمرحلة التي تعادل ثلاثين كيلو متراً تقريباً[4].

(1) الهادي عبد العال حنيش، ص45 - 46.
(2) المرجع نفسه: ، ص45 - 46.
(3) المرجع نفسه، ص46.
(4) برنشفيك، روبرت، مرجع سابق، ج2، ص264؛ الهادي عبد العال حنيش، ص44-45.

الخلاصة:

كان لموقع طرابلس المتميز أهمية في نشاط سكانها وقدرتهم على تصريف منتوجاتها الزراعية، وتسويقها في الداخل والخارج وفتح أسواق لها، فضلاً عما كانت تستخدمه من قوافل للتبادل التجاري عبر الصحراء مع السودان الغربي، وما كانت تستخدمه من سفن بحرية للتبادل التجاري مع أوربا وخاصة المدن التجارية الإيطالية عبر ميناء مصراتة وباتجاه صقلية عن طريق زليتن، ونشطت غرداية بتجارة السودان وورغلة للتبادل التجاري مع السودان.

وقد نشطت الحركة التجارية عبر الصحراء منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد وقيام الدولة الحفصية عن طريق الطرق التجارية الصحراوية نحو السودان ومصر وبجاية والجزائر وفاس.

أن تجار طرابلس كانوا يحملون إلى بلدان السودان بضائع من إنتاج محلي، حبوب، تمور، زيت، ثياب، أقمشة، جلود، ويجلبون معهم للاستهلاك المحلي (العبيد والذهب).

ولذا فإن تجارة طرابلس تميزت بأنها تجارة عبور؛ حيث تخرج عبرها سلع الصحراء إلى بلاد المشرق والمغرب وشمال البحر الأبيض التوسط خاصة الذهب والعبيد، وأقمشة الحرير، وقباطي مصر وثياب الخز والكتان والثياب المرسية إلى بلاد الصحراء، فإن تجارة طرابلس كانت في حقيقة الأمر أكبر من تجارة عبور (ترانزيت).

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

- القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.
- الإدريسي: (ت 564هـ)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج1،

To pdf: www.al-mostafa.com

- ابن بطوطة: **الرحلة**، دار صادر، بيروت، (دت).

- البكري، أبو عُبيد الله: (ت 487هـ)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب الممالك والمسالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د ت).
- التجاني، أبو محمد عبدالله محمد بن أحمد: (ت 717) رحلة التجاني، الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، (د ت).
- الحميري، محمد بن عبد المنعم :(ت 727هـ/ 1326م)، **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1975م.
- ابن حوقل، أبو القاسم: (ت 367هـ)، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م.
- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن على بن موسى: (ت 673هـ)، **كتاب الجغرافيا**، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1970م.
- العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر: (ت 1090هـ/ 1679م)، **الرحلة العياشية**، فاس، 1316هـ، جـ1.
- مؤلف، مجهول: (ت القرن السادس الهجري)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، بغداد، 1980م.

ثانياً القواميس:

- ابن منظور: (ت 711هـ)، **لسان العرب**، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي، مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (دت)، ج6.

ثالثاً المراجع العربية:

- حسن، حسني عبدالوهاب: **ورقات**، ق1، ط2، مكتبة المنار، تونس.
- حسن، محمد: **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، جامعة تونس الأولى، ج2، 1999م.
- الدالي، الهادي المبروك: **مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا من القرن 13-15**، صفحات من تاريخ العلاقات العربية الإفريقية، تقديم: محمد رزوق، دار الملتقى للطباعة والنشر، (د ت) .

- السباني، صالح الصادق: **ليبيا أثناء العهد الموحدي والدولة الحفصية من 6-10 هـ/ 12-16م**، (القرن السادس - العاشر الهجري / الثاني عشر - السادس عشر الميلادي)، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، ط1، 2006م.
- عامر، أحمد: **الدولة الحفصيَّة، صفحات خالدة من تاريخنا المجيد**، دار الكتب الشرقية، تونس، (د ت).
- عبد الفتاح، سالم إبراهيم: **العلاقات بين مصر وطرابلس الغرب في عهد الأسرة القرمالية**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الجماهيرية - طرابلس، ط1، 2008م.
- عمورة، علي الميلودي: **القلاع والحصون والمحارس على التراب الليبي خلال مختلف العهود**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الجماهيرية - طرابلس ط1، 2005م.
- قداح، نعيمة: **إفريقية الغربية في ظل الإسلام**، كوناكري، 1960م.
- أبو مصطفى، كمال: **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، مركز الإسكندرية للكتاب، 2008م.
- مفتاح، صالح مصطفى: **ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر**، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، بيروت لبنان، ط1، يوليو 1978م.
- موسى، عز الدين أحمد: **النشاط الاقتصادي الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1403هـ/ 1983م.

رابعاً المراجع المترجمة:

- برنشفيك روبار، Brunschvig Robert: **تاريخ إفريقيَّة في العهد الحفصيّ من القرن 13-15م**، نقله إلى العربيّة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1988م، ج1 -2.
- كرنبال، مارمول: **إفريقية ترجمه**: محمد حاجي، محمد زنيبر وآخرين، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1984م ج3.

- ليتنر، جان كلود: **طرابلس ملتقى أوربا وبلدان وسط إفريقيا (1500-1795م)**، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلان، الجماهيرية، ط2، 2008م.
- ناجي، محمود: **تاريخ طرابلس الغرب**، ترجمة: عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى، دار الفرجاني، طرابلس - ليبيا، 1995م.
- الوزان، الحسن محمد المعروف بليون الأفريقي: (ت957هـ/ 1550م)، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية: محمد الحاجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط2، 1983م، ج2.

خامسا الدوريات:

- بونو، سلفاتور: «تجارة طرابلس عبر الصحراء»، **مجلة البحوث التاريخية**، السنة الثالثة، العدد الأول، يناير، 1981م.
- حنيش، الهادي عبد العال: «أدوات ومعايير الكيل والقياس في التراث الشعبي الليبي»، **مجلة تراث الشعب**، السنة السادسة عشرة، العدد الثاني، 1425 ميلادية/ 1996ف.

سادساً المراجع الأجنبية:

- De La Ronciere, ch: *La Decouverete De l'Afrique au Moyen Age*, T. J. Le Caire, 1934.
- Lewicki, T, *A Propos d'une liste de tribus Berberes*, in f.o 1959.